أساتذة الشريعة إلى أين ؟

سالم فرج صالح رحيل
قسم الدراسات الإسلامية. كلية الآداب السواني
جامعة طرابلس . 1/5/ 2026

الحمد لله الذي تجاوز عن التَّائبين وأنار الطريق للناظرين، ومنَّ بالعود للآيبين، وصلى الله وسلم على معلم الناس أجمعين.

بالنظر إلى أساتذة الشريعة وحملة المؤهلات العليا في علومها، ومن خلال الأمانة التي تحملوها، والطريق الذي سلكوه، فالمتوقع منهم أنهم حماة الشريعة والمدافعون عنها قولاً وعملا، والمأمول منهم التَّخلق بأخلاق الأنبياء، لأنهم حملة رسالتهم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:181]، وقد ذُكِر أنهم أمة محمد ﷺ، كما نقل ذلك ابن كثير واختاره.

وإذا كان العلماء وطلبة العلم هم خاصة الخاصة من هذه الأمة، فهم أولى بهذا الشرف العظيم- وهو هداية العباد للحق والدعوة إليه- فهل وعى علماؤنا وأساتذة الشريعة حمْل الأمانة الملقاة على كواهلهم؟

الحقيقة إن المتأمل للواقع يرى أن جامعاتنا تُخرج كل سنة عَدداً كبيراً من أساتذة الشريعة من مشارب مختلفة، وأصحاب غايات ومقاصد تتقلب بين الدنيوي والأُخروي، ومن أرادهما معاً.

فهل لأساتذة الشريعة مطلب للنجاة بعلمهم؟ وكيف يفرق أستاذ الشريعة بين التَّعليم لطلب المثوبة من الله تعالى، والتعليم لغرض الوظيفة والمنصب؟

إن تحليل هذه الأسئلة والإجابة عنها يدعونا إلى استفهامات أخرى، تضع كل واحد منا على مرآة نفسه، ومن هذه الأسئلة:

هل عين أساتذة الشريعة على التَّمايز فيما بينهم؟ وما هو التَّمايز الذي يرجوه المشتغلون بهذا العلم الشريف؟ هل التمايز هو التفوق العلمي والوظيفي؟ أم التمايز هو التحلّي بالورع والتَّقوى؟

تجربة بسيطة لعلها تبين لنا حالنا اليوم، في تعاملنا مع الوضع الخطير الذي وقفنا على شفيره؛ والله المستعان.

إذا استعرضنا حال كثير من أساتذة العلم الشرعي- ونحن منهم-، فسنجد أن طائفة عريضة منَّا يدرسون العلم لا للعلم والحسبة فيه، بل للوظيفة ولطلب الشهرة والمناصب، ويتناسى ويتعامى كثير منَّا- ممَّن وقعوا في حبائل التَّلْبيس والتبليس- عن قوله ﷺ "من تعلَّم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة" يعنى ريحها[1]، هذه رواية أبي داود عن أبي هريرة، ورواية الترمذي عن ابن كعب بن مالك عن أبيه: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به

---

[1]- سنن أبي داود، /3666.

السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار"[2]، إن مجرد التفكّر في هذه الأحاديث وإدانة العالم أو طالب العلم نفسه، وعرض نيته على مجهر المحاسبة، أو عرضها على غربال أعمى من التصفية والتخلية، يعيد لمزاول هذا العلم رشده، ويبصره بأمره، نسأل الله أن يقينا فتن القلوب وأمراضها.

أُدخل المؤتمرات العلمية التي تقيمها عدد من كليات الشريعة لتعلم الغاية من الإتقان في العلم الشرعي؛ والتفنن والتَّباهي في الصَّنعة الكلاميَّة، وإيراد الحجج وإظهار علُو الكعب، والإعجاب بالنَّفس، ولقد حضرت مرة ندوة في التفسير، فرأيت أحد الأساتذة وهو يفسّر ويستخلص من سورة الأحزاب فوائد فيما يعتقد، ثم صار يتباها في آخر محاضرته بأنه استخلص كل ذلك ولم يرَجع لأي من كُتب التفسير، بل هو من إفراداته وتقريراته، فلم أفهم حقيقة ما قصد، أيرى في نفسه أنه أعلى كعباً من المفسِّرين قبله! ؟، أم يرى أنه أُوتي مجامع العلم بكتاب الله، ولا حاجة له بأن يراجع تفاسير السَّلف والخلف؛ وأقوال أهل العلم بمعاني القرآن العظيم!؟، ورأيت آخر يقرُّ أحد الأساتذة ويصوِّب رأيه في ندوة علميَّة قائلاً له: (لا معقّب لحكمه) !، وقد نبَّهت أحد الحاضرين إلى خطورة ما يقول صاحبنا، وقلت في نفسي- سبحَان الله- نسأل الله تعالى أن يتجاوز عنَّا وألا يؤاخذنا بما نقول، فعلاً وحقًّا وصدقاً؛ الأمر يحتاج منَّا إلى إعادة نظر وتقييم لما نقول ونفعل، والله المستعان.

لا شكَّ أن النوايا أسرار، ويوم القيامة يكشف المستور، ويظهر المكنون، وما كان غيباً لا يعلمه إلا الله ﷻ يكشف يوم القيامة بين العبد وربه، أو أمام الخلائق إذا شاء علام الغيوب.

ولكن هذه الغيبيات وهذه النوايا يكشفها الله تعالى لعباده في الدنيا بعلامات يستدل عليها، فالإخلاص والورع والخشية الحقَّة لله ﷻ ؛ لا يمكن إلاَّ أن تظهر في سلوك العبد الظاهر وفي انعكاسات الباطن.

إن حديثاً للنبي ﷺ من نحو ما سبقت الإشارة إليه، يجعل صاحب العلم والبصيرة خائفاً وجلاً حذراً أن تخونه نفسه فيفشل في امتحان الإخلاص، أو تزلّ به القدم فيهدم كل ما بنى بفساد النية، وانطباع القلب بشهوة الشهرة والعجب، والإعجاب بالمدح، وهي الأمراض التي حذَّر منها الصفوة والخُلَّص من هذه الأمة.

إن مدارسة أحوال أصحاب الهمّ والهمم؛ يجعل أحدنا يخجل أن يرى نفسه أهلاً لأن يذكر اسمه مقروناً بعلم الشريعة، بل مع أصغر طالب علم من طلاَّبها في ذلك الزَّمان، حيث نرى العجب من تقلّل أهل الفضل لأعمالهم في ذات الله ﷻ ، وازدراءهم أنفسهم والإزراء بها، والتَّقلل والتخفُّف من ارتداء عباءة العلم، ورفعهم من شأن أقرانهم، والاستخفاف بشأن أنفسهم تواضعاً لله ﷻ وطلباً للإخلاص، فهذا مالك بن أنس يقول لسائله الذي جاءه من مسافة بعيدة، ارجع لمن أرسلك وقل له إن مالكاً لا يدري، وقال ابن وهب: لو ملأ رجل صحيفة من قول مالك لا أدري؛ لفعل قبل أن يجيب في مسألة، وقال مصعب: وجهني أبي بمسألة ومعي صاحبها إلى مالك يقصها عليه، فقال ما أحسن فيها جواباً، سلوا أهل العلم![3]، وسئل الشعبي كيف كنتم تصنعون إذا سئلتم؟ قال: على الخبير وقعت، كان إذا سئل الرجل قال: لصاحبه أفتهم، فلا يزال حتى يرجع إلى

---

[2]- سنن الترمذي، /2654.

[3]- ترتيب المدارك، 42/1.

الأول[4]، وسئل القاسم بن محمد عن شيء، فقال: إني لا أحسنه، فقال له السائل: إني جئتك لا أعرف غيرك، فقال له القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها، فو الله ما رأيناك في مجلس أنبل منك اليوم ، فقال القاسم: والله لأن يقطَع لساني أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّم بما لا علم لِي به[5].

فإذا قيَّمنا النظر في مجالس علمائنا اليوم وحضرنا ندواتهم ومؤتمراتهم وردودهم المباشرة على الهواء؛ نرى معجباً بنفسه، نرى متباهياً على أقرانه بتصنُّع المقالات، والإغراب في العبارات، لا لتقديم مادة في مجالات العلوم المختلفة، بل لتسجيل النِّقاط، وعرض كعرض البضاعة لنيل إعجاب الجمهور وتحقيق أعلى نسب المشاهدات في المنصَّات.

والحقيقة أن التَّأثير في الناس مطلوب لا لذاته ولكن لأثره وآثاره الإصلاحيَّة والدعويَّة، بغية هداية الناس وسوقهم إلى دروب الحق ومشاعل الهدى، ومن كانت هذه غايته فهنيئاً له، فإن النبي ﷺ يقول؛ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ: " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه دون أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى إثم كان عليه من الآثام مثل إثم من تبعه دون أن ينقص من آثامهم شيئاً"[6].

ولا شكَّ أن هذه الأحاديث والآثار معلومة عند المتخصصين في علوم الشريعة، لكن الأجواء السائدة والغالبة عند جم غفير منهم، هي أجواء المغالبة والتخطئة للأقران، كما هو الحاصل في عدد من كليات الشريعة والمنابر العلميَّة لبعض المؤسسات، وهي أيضاً سائدة في بعض المواقع والمنصات الفضائيَّة، فلا تكاد تسمع إلا قدحاً في أقوام، ومجاملة وتزكيةً لآخرين وأوصاف وألقاب، كالعلاَّمة والحجَّة وأعلم أهل الأرض؛ وغير ذلك، على نحو كان يتخفَّف منه السَّلف ويتبرؤون منه، بل يزري أحدهم بنفسه مخافة أن يرفعه الناس فيسقط من عين الله، وما أكثر تواضعهم، ونصحهم لبعضهم في هذا الشأن، دخل سيار أبو الحكم: المحدّث المشهور بعبادته وورعه، على مالك بن دينار وعليه ثياب جياد فقال له مالك مثلك يلبس هذا اللباس، فقَال يا مالك: ثيابي تضعني عندك أو ترفعني ؟ قال: بل تضعك، فقال: هذا التواضع، ثم قال له يا مالك إنِّي أخاف أن يكون ثوباك قد أنزلا بك من الناس مالم ينزلا بك من الله"[7]، وفي هذا الباب آثار كثيرةٌ عنهم فلنتأملها لنربِي أنفسنا وفقاً لهذا المنهج.

وقَلَّ أن تجد في أغلب الندوات والمؤتمرات على كثرتها من يتواضع في علمه، وينصح لإخوانه، حتى صارت هذه المحافل تأخذ طابعاً روتينيًّا بحجة الارتباطات والمواعيد، وطبيعة الحاضرين ومكانتهم السياسيَّة والاجتماعيَّة، والنَّظر إلى مناصبهم الإداريَّة ورتبة جامعاتهم وشهرتها.

---

[4]- المصدر السابق، حديث رقم/138، وانظر- أعلام الموقعين، ج1ص40 .

[5]- أعلام الموقعين، ج5ص86 .

[6]- صحيح مسلم، /2674.

[7]- حلية الأولياء، 314/8.

ولذلك يحسن بنا أخذ الاعتبار بجوانب التهذيب لهذا السلوك، وتقويم هذا الاعوجاج، وفي تصوري يمكن الأخذ بعدة خطوات نافعة في هذا الجانب:

1- تغليب نية العمل بالعلم؛ على نيَّة التَّعلم المجردة، والمعين على ذلك مطالعة أحوال أهل العلم الزهَّاد الرَّاغبين فيما عند الله، يقول مالك بن دينار: "يا عالم أنت عالم، تأكل بعلمك وتفخر بعلمك، لو كان هذا العلم طلبته لله تعالى لرؤي فيك وفي عملك"، وعنه أيضاً: "من طلب العلم للعمل وفقه الله، ومن طلب العلم لغير العمل يزداد بالعلم فخرا"[8].

2- استحضار معنى القدوة الصالحة في تقديم العلم وتلقّيه، فإنَّ عالم الشريعة ومدرس العلوم الإسلاميَّة قدوة لطلابه، كما ينظر إليه الآخرون بعين الاحترام والتقدَير، وهو بهذا يمثل الشريعة في نظر المحيطين به، فإذا استحضر كل هذه المعاني فإنه يستدعي الإخلاص لا محالة، لأنَّ الله تعالى يقول له ولكل المؤمنين القائمين على أمر بلاغ الدعوة للعباد: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾[الصف: 2-3].

3- اتهام النفس دائماً بالقصور أدعى إلى التواضع، وإذكاء الخشية على القلب وتفويض العلم الكلي لله ﷻ خير دواء ومعين على أدواء النفس، وتخليتها قبل تحليتها، ليكون العبد نقيًّا صافياً، وينفعه علمه في الدارين، والله المستعان.

وختاماً فإن العلم أمانة، وعلم الشريعة آكد الأمانات العلميَّة، لأن عليه قوام الدين واستقرار الشريعة، وبيان الدعوة إلىالله تعالى، فعلينا جميعاً من علماء أو طلبة علم، أو مهتمين بالعلوم الإسلامية على تنوعها وكثرتها، أن نتقيالله عز وجل وأن نخلص النية في طلب هذا العلم وفي بلاغه للناس، ولنحذر من مواطن الرياء والعجب وإرادة الدنيا، ولنتذكر أحاديث النبي ﷺ وتحذيره من هذه الأمراض التي تصيب القلوب، وهي حبائل يصطاد بها الشيطان ضحاياه من بني آدم، وهي مصائده ومكره بأهل العلم، نسألالله تعالى أن يعيننا على أنفسنا وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

[8] - حلية الأولياء، 378/2.